

رمزية الشعر المعاصر

الأستاذ باقي أحمد

يسعى الشاعر المعاصر إلى توظيف نصه الشعري بتقنية الرمز وهذه التقنية تعد أداة جديدة من أدوات التخفي التي أصبح الشاعر المعاصر يتوسل إليها للتعبير وبطريقة باطنية عن أحزانه وأفراحه ومشاكله الاجتماعية والسياسية ولأن الشاعر المعاصر بطبيعة الحال ينتمي إلى فئة اجتماعية معينة وصاحب موقف مما يجري في واقعه ومن هنا لابد عليه أن يعبر عن هذا الموقف الذي اتخذته منهجا خاصا في حياته ومادام الشاعر فنان وحساس في نفس الوقت فلا بد أن يعبر عن هذا الموقف سواء بالإيجاب أو السلب أو التمرد عن عادات وتقاليد مجتمعة وحينما لا يجد من ذلك بدا ومخرجا يتجه إلى وسائل أخرى لعله يجد فيها متنفسا والرمزية تعد إحدى وسائله المنفصلة ليكشف من خلالها عن مكونات نفسه الداخلية بطريقة حنفية ليتجنب سلطة الحاكم، أو ليعيش من خلالها في عالمه الخاص وهذا من خلال لغة خاصة ورؤى ومواقف متميزة في عملية الترميز مظهر أصيل من مظاهر التفكير الإنساني الذي يميل إلى إضفاء السمة الكلية على الجزئي المحدود من الظواهر والوقائع والأشياء، وتبيان ذلك النشاط العقلي تبعا لتطور الوعي الإنساني وعمق رؤيته للعالم، واللغة في حد ذاتها شبكة من الرموز يسعى الشاعر المعاصر إلى اصطياها ليستطيع من خلالها الخلق والابتكار وهذا من خلال تختلف عن لغة القدامى لأن هذه اللغة

يريد الشاعر أن يطعمها وأن يسبغ عليها من خلال الأرمزية فإن "للحياة ظاهر وباطن وإننا نحن محاطون بالأسرار التي هي روح الواقع وجوهره، وأن الشعر لا ينبغي له أن يكون وصفاً، فإذا أردنا أن ندرك روح الأشياء التي تختفي وراء المظاهر تتخذ الرمز سبيلاً إلى ذلك فيصير الشعر إيحائياً موسيقياً شعرياً"¹ ولكن إذا تعمقنا في مستويات الرمز فنجد أنه يختلف من شاعر إلى آخر ومن جيل إلى جيل وهذا نظراً لبعض المعطيات الفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية التي تؤثر بها الشاعر وعاش في محيطها، فالشاعر الذي كان يعيش في العصر الأموي أو العباسي أو الأندلسي هو غيره الذي يعيش في هذا العصر لأن ظروف الحياة وظروف الحروب تختلف اختلافاً جذرياً عن الشاعر القديم. فالحياة دائماً في تجدد وتطور ومن هنا لا بد أن تكون هناك لغة خاصة تختلف عن لغة القدامى، ولأن اللغة هي شبكة من الرموز فإن "الدال في الاستعمال اللغوي المعاصر هو الكلمات ويقابلها المدلولات وهو كل ما تشتمل عليه الحياة المادية والذهنية والوظيفة الدلالية لتلك الرموز وهي إثارة صوت المدلولات لدى السامع أو القارئ أي عقد أجرة بين الدال والمدلول لدى السامع فتتشكل في مخيلته صورة الشيء على نحو معرفي يؤدي بها ردود الأفعال المباشرة أو البعيدة"² وهكذا أصبح الرمز وسيلة من الوسائل المهمة في الشعر العربي المعاصر ومكون من مكونات الوعي الجمالي وإن هذه الوظيفة الترميزية هي خروج واضح من القصيدة العربية المعاصرة من الدائرة الكلاسيكية ودخولها إلى

عالم الدلالة والتخفي فالرمزية "طريقة في العمل الأدب تعتمد على الإيحاء بالأفكار والمشاعر لإثارتها بدلا من تقريرها أو وصفها أو تسميتها بهدف توليد المشاركة الوجدانية من الشاعر والمتلقي عنه طريق الاعتماد على وسائل الإيحاء في الأصوات والتركيب والصور.³ وهكذا يوظف الشاعر المعاصر تخصيب نصه الشعري بمعطيات ودلالات تجعله يركز على العمق الفكري والموضوعي والوجداني ومن بين هذه التوظيفات التي يريد الشاعر إدخالها في نصه الشعري من خلال الترميز نجد بعض الشخصيات التراثية التي يخصصها في شعره بين الحين والآخر "إنه جهد تعبيري يحشد بدلالات رمزية تتفاوت حيوية وفراة من شاعر إلى آخر"⁴ وتوظيف الرمز في حد ذاته وحتى بالنسبة للنقاد فهم يختلفون في تفسيرهم له، وهذا على حسب ثقافته ومعرفته ومرجعياته الفكرية، فهو عند بعضهم "كل ما يحل محل شيء آخر في الدلالة عليه لا يطرق المطابقة التامة وإنما بالإيحاء أو بوجود علاقة عرضية أو متعارف عليها"⁵ وعند بعضهم الآخر فإن الرمز. ما يومئ للشيء عن طريق علاقة بينهما كمجرد الاقتران أو الاصطلاح أو التشابه العارض غير المقصود والرمز إشارة أو تعبير عن شيء آخر ومن خلال هذه الأقوال السابقة لبعض نقاد الأدب لهذه الأداة الترميزية والتي يستخدمها الشعراء المعاصرون في نصوصهم الشعرية واعتمدوا عليها اعتمادا كليا للتعبير عن أغراضهم وحاجاتهم المختلفة بطريقة حفية والتي لا يعرفها إلا المتلقي المترسي في الغوص في أعماق النصوص الأدبية وتمكنه من القراءة الجيدة.

ومعرفة ما يذهب إليه الشاعر من أغراض ومفاهيم يريد الوصول إليه من خلال توسله بهذه الطريقة الرمزية والمتلقي اليوم أصبح يكشف ويلعب دورا رئيسيا في الكشف عن خبايا النص من خلال قراءته لهذه الأعمال الأدبية المختلفة ولأن هذا المتلقي المتمكن وجد في هذا الترميز ضالته كمثلته مثل الشاعر المعاصر ف "فهو يعد الشاعر العربي في بحثه عن رمزه الخاص، أو المنقبين، فقد كان وليام بايك أو المنقبين ذا جهد واضح في خلق أساطيره ورموزه الشخصية، كذلك الأمر فيما يعد بالنسبة للشاعر الإيرلندي بيتس كان كلاهما يسعيان بشكل دأب إلى خلق رموزها الخاصة، إضافة على استثمار ما وجداه من أساطير ورموز ماثلة، وكان لاكيوت رمز والفخمة، الأرض الخراب، الرجل الجوف تبرستاس الفريد بيرو وفورك، يمثل سعى هائلا للتعبير رمزيا عن الحياة".⁶ وهذه الرمزية أصبح الشاعر اليوم يختفي وراءها لأنها وسيلة أدائية نموذجية لإخفاء نفسه بطريقة فنية ذكية .

وهذا يعني أن الشاعر المعاصر أصبح يقوم باستدعاء الشخصيات التراثية وتوظيفها في نصه الشعري، وهذه نوع من الرمزية والتي هي في واقع الأمر "أداة تقرير ومقابلة وتبديل فهو لا يقبل واقعا بواقع آخر ولا يستعير منه، ولا يكنى عليه بل أنه ينفذ في ضميره وفي نواياه ويطلع من قلين المادة الصماء وأرواح الحقائق الكامنة فيه، فالرمز ينقل الحقيقة المهمة، بإيهامها وليس من حقيقة عميقة إلا هي مبهمة لهم".

ونستطيع أن نؤكد أن الرمزية هي طريقة جديدة في التفكير وفي طرح القضايا ومعالجتها بطريقة خفية يريد الشاعر من خلالها أن يصل إلى هدفه الموجود إنها .

وهكذا أصبح الرمزية عاملا من العوامل المهمة في النص الشعري لأن الشاعر أصبح مضطرا لاستخدام هذا الرمز وتكثيفه وهذا ليعبر عن أغراضه الخاصة وهذا نظرا لعدة عوامل أصبحت تكبح آرائه سواء كانت هذه الآراء سياسية أو اجتماعية وحتى ثقافية، ولكن ومع ذلك أصبح هذا الكثيف الرمز تارة يتجاوز المعقول فتقع هناك هوة كبيرة بين المبدع والمتلقي وهذا نظرا لعدم تفسير هذه الرموز الكثيفة من طرف المتلقي وبالإضافة إلى ذلك فإن الشاعر أصبح اليوم يتعامل تعاملًا كثيفا مع الرموز القديمة ويلج على استخدامها وتوظيفها في كل أغراضه الشعرية ويترك الفرصة للمتلقي حتى يكشف عن كنه هذه الرموز فكما "يتعامل الشاعر مع الرموز القديمة فإنه يخلق كذلك الرمز الجديد وينشئ الأسطورة الجديدة، وهو في هذا يحتاج على قوة ابتكارية قدة، يستطيع بها أن يرتع بالواقعة الفردية المعاصرة إلى مستوى الكلمة الرامزة"⁷.

والحقيقة تقال أن هذه الرمزية زادت في جمالية الإبداع الشعري وأصبغت عليه نوعا من المثالية وهذا على صعيد البنية السطحية والبنية العميقة، وأصبح المتلقي من يبحث من خلال هذه الأداة الرمزية عن دينامية التحليل والتصنيف ثم يتجاوز عوائق ترتيبات هذه الرمزية فاهتم بتحليلها ومعالجتها والإضافة

إلى ذلك إذا جاز هذا التعبير إنه لقاء متفاعل ومتناغم ومتناسق بين الشاعر والمتلقي في الكشف عن مكونات هذه الرمزية فالشاعر يبدع ويلغي بظلال هذه الرمزية على نصه الشعري، والمتلقي بدوره يضيف إبداعاً آخر من خلال قراءته المتأنية لهذا النص الشعري وقد أخذ هذا المتلقي على عاتقه دراسة هذه الرمزية التي وظفها الشاعر في نصه الشعري دراسة عميقة ووفق من خلال كل هذا على البنيات الأولية لتجسيد هذه الرمزية والكشف عنها.

وقد اعتمد الشاعر المعاصر في تقنية هذه أي الرمزية تجسيد العوالم الباطنة والظاهرة عن البعد النفسي للشخصية الأسطورية فتعاطى الشاعر مع رمزه الأسطوري. والشاعر من ذلك العقل الذي يصطاد دهشته مما ييوح به التراث العربي من شخصيات عائد لها وزنها الكبير في عصرها فالنص الشعري لا يولد مصادفة وإنما يأخذ هذا الإبداع ولو بطرف قليل من الماضي، وأصبحت القصيدة من خلال استدعاء هذه الشخصيات التراثية تقول شيئاً وتعني شيئاً آخر أما الباطن الفعلي لهذه الرمزية قارنه يتكون برصيد التجارب الموجودة لدى كل قارئ وهي تجارب تمثل خلفية معرفية يمكن من خلالها إدراك هذه الرمزية التي يطمع الشاعر المعاصر على إيصالها للمتلقي لو بطريقة خفية "وبمقتضى هذا، يقف القارئ في موقفه يمكنه من أن يجمع المعنى الذي أرشدته رؤى النص إليه، ولكن

لما كان هذا المعنى لا يمثل واقعا خارجيا ما، ولا نسخة من عالم قارئ مقصود فإنه يصبح في بعض الحالات ما يجب على ذهن القارئ أن يتصوره، ولا يمكن لواقع ليس له وجود في حد ذاته أن يصبح ذا وجود إلا عن طريق عملية التصور هذه، وذلك حتى تخلق بنية النص سلسلة من الصور الذهنية التي تؤدي إلى ترجمة النص النفسية إلى وعي القارئ أما المضمون الفعلي لهذه الصور الذهنية فيتبلور برصيد التجارب الموجودة لدى كل قارئ وهي تجارب تمثل خلفية مرجعية يمكن من خلالها إدراك غير المؤلف وأعماله". وهكذا أصبحت هذه الخلفية المعرفية تستمد مادتها الخام من الذات وأصبح الشاعر كذلك يختار بين هذا التراث وما يناسبه ويلائم اتجاهاته ومشاربه ويخدم أغراضه التي يريد الوصول إليها.

والتراث أصبحت له قيمته الحقيقية ولم يعد ذكرى ميتة يمكن الاستغناء عنها بل بالعكس فهذا التراث لابد أن يستغل استغلالا كاملا لأن فيه من المعارف والمفاهيم التي يجب توظيفها في كل أعمالنا الأدبية وهذا ما تنبه إليه الشاعر المعاصر. فأصبح يستغل هذه المفاهيم والمعارف لتوظيف الشخصيات التراثية ليجعل منها رمزا يعبر به عن ما تختلج به نفسه "محتشدا ذلك في صور وأشكال مختلفة، وبأشكال تعبيرية تتجلى فيها القدرة على التعامل مع الكلمات واستخدامها في مجالات غير مباشرة، وغير مقنعة مما يساعد الإنسان على تحويل موضوع تجربته الانفعالية

مع الكون والنفس الداخلية هادفا من خلال ترميزه الأسطوري لهذه التجربة إلى إنتاج بنية أدبية يحاول من خلال تمثيلاتها وصورها لهذه الحركة إعادة إنتاج العالم على مستوى الرمز" ⁸.

وهكذا أصبح الشاعر المعاصر يستدعي الأسطورة بوصفها وسيلة رمزية لعله من خلالها يصل إلى مبتغاه وهدفه الذي يطمح إليه . وهذا التوظيف للرمز الأسطوري له دلالات كثيرة عند الشاعر المعاصر فمنها أنه " ينزع إلى الابتهاج الكلي إلى هذه الرمز الأسطوري خدمة لأغراضه بدون غيرها من الأغراض إذ ننجه إلى مفصل الشعر العربي الحديث وعاداته الأسطورية لتصبح هذه الأسطورة رمزا من الرموز التي يتقمص من خلالها الشاعر دور هذه الشخصيات الرمزية التي اختارها حتى تكون منبعاً ومصدراً ومادة خاماً لنصه الشعري ثم ليمتظر هذا الرمز بمشهديه تفصح عن واقع الاغتراب الوجودي، الذي يعانيه الشاعر .

ولقد تعاطى الشاعر الحديث بوصفه منجماً خصبا لطاقاته الإيحائية ثم طعم هذا الرمز بالأسطورة بل هي تطلع إلى خلق وهي لذلك لا تعبر عن نفسها أبداً بالمفاهيم والرموز فنزوع الشاعر إلى استثمار لهذا الحقل التراثي وتهذيبه وتطويعه وجعله يتناسب مع معطياته الفكرية والسياسية والاجتماعية بوصفه مشتركا معرفيا يتقاسم الدور فيه المبدع والمتلقي كل منهما يحد خاصته وضالته التي يبحث عنها، فالمبدع يوظفها لأغراضها الخاصة والمتلقي يقرأها ليربح نفسه من هذا القلق الوجودي الذي يحيط بهت

متلق إنها عملية تأثير وتأثر بين المبدع والمتلقي. وبهذا أصبح النص الشعري يعبر عن بعد فكري ورمزي وقد جاءت هذه الرمزية لتعبر للدلالة على شيء مسكوت عنه. فهي هاجس الشاعر لتظل هذه الرمزية مرجعيته وسلطته المتعالية ويترك هذه الرمزية هي فراغ يملأه المتلقي "والفراغ المسكوت عنه يميل على معان وتفسيرات وتصورات عدة يشارك فيها القارئ للنص" ومن خلال هذه الرمزية التي أصبح الشاعر المعاصر يتفاعل معها تفاعلا كليا ويبحث من خلالها عن تساؤلات وجودية وميتافيزيقية قد بقيت في دائرة العتمة المعرفية والوجودية التي لم يعلن عنها النص الشعري، بطريقة واضحة سواء كان ذلك من الداخل او الخارج وهم تساؤلات متمردة تبحث دائما عن خصوصية المجتمع الذي يعيش فيه الشاعر، ف"التشظي والغياب جزء لا يتجزأ من نسيج العالم المعاصر ومن صميم تكوينه، فحاضر الوجود الإنساني يتم بكونه مبعثرا وممزق الأوصال، مسخر بالتناقضات الصارخة التي تدمر إيقاعه تدميرا، وتجعل صورته انعكاسا واضحا لمعاني العبث والاستلاب واليأس واللا جدوى، أي تجعل تعبيراً عن نزوع الغياب لا عن قوة الحضور"⁹ ثم أن الشاعر المعاصر أصبح يتناول هذه الرمزية ليبحث من خلالها عن الحقائق الكبرى التي يريد أن يخرجها من قوالبها الجاهزة ومساراتها المعتادة وهكذا أصبح هذا الزمن الماضي الذي استخدمه الشاعر من خلال رمزيته هذه هو انعكاس تام للزمن الحاضر الذي يعيش فيه "ومن المفيد أن يقارن المرء صورة

التاريخ الزمن الماضي وانعكاساته في المرأة بصورة الحاضر أو مرآة القرن العشرين، فإنه يجد أن رموز الماضي من المتحولات في الأغلب، أما صور القرن العشرين فإنها، من الثابت، تابوت، كتاب وحش، صخرة، كما أنها جميعا مرتبطة بالقدرة على التحطيم، ومع أن التابوت يلبس وجه الطفل والوحش يتقدم حاملا زهرة، فإن ذلك مبالغة على الوجه الخادع الذي يلبسه الزمن الحاضر أو الحضارة الحديثة أو التاريخ الحديث"¹⁰.

وهكذا أصبح الشعراء المعاصرون يوظفون هذه الأساطير الرمزية سواء كانت دينية أو خرافية أو واقعية و"أهم ما ركز عليه الشعراء منها لا يتعدى ست أساطير وهي تموز والعنقاء وعشتار والفنيق والمسيح والسندباد"¹¹ ثم أن الرمزية بالإضافة إلى المعطيات السابقة التي تم ذكرها فإنها من الناحية تزيد النص الشعري جمالا ورونقا "لأنه أداة تقرير ومقابلة وانتخاب فهو لا يقابل واقع آخر ولا يفترض عليه ولا يستعير منه، ولا يكنى عليه بل أنه ينفذ ضميره وفي نواياه ويطلع من قلب المادة الصماء وأرواح الحقائق الكامنة فيه، فالرمز ينقل الحقيقة المبهمة بإبهامها وليس من حقيقة عميقة ألا وهي مبهمة"¹².

إن الرمزية تستطيع أن تؤكد أنها فن من الفنون الجميلة التي أصبغت على محتوى النص الشعري جمالياتها وظلالها بحيث أصبحت الميزة التي أخذ الشعراء المعاصرون اليوم يتوسلون

للتعبير عن كل ما يختلج في نفوسهم بطريقة خفية وذكية إن صح هذا التعبير.

ولأن النص الشعري الرمزي أصبح يؤثر بدوره في نفسية المتلقي ولأن "التأثير شرط مشروع، فلا يشترط سوى النجاح في توظيف ما يستعيره الشاعر من الآخرين ليشكل عملاً متميزاً"^{3 1} ثم أن هذه الرمزية التي استخدمها الشاعر في نصه الشعري تعددت على مجالات الطبيعة "يتقارب المعجم الرمزي الشعري الحديث ليؤلف حقلاً دلالياً كلياً يعثر فيه مثلاً على القمح للخصوبة، الحجر للمجداد، الموت والحجر والمغامرة والمستقبل، النار للثورة والانقلاب والرماد للنهاية والعدم والليل للحزن والتأمل"^{4 1}. فرموز الطبيعة هي في الحقيقة مسحونة بدلالات في التعبير عن نصيته الداخلية والتي لم يستطع أن يعبر عنها جهرًا.

"فالشعر السامي يكثر فيه تشبيه الإنسان بالنبات، ولم يكن هذا التشبيه لدى القدماء من قبيل المجاز المجرد، بل كان لهم شيئاً أقرب إلى الواقع حسب إدراكهم له، فالطبيعة كلها واحدة وأجزاؤها ومظاهرها متعددة الجوهر والقوى التي تسير بعضها لا بد أن تسير البعض الآخر"^{5 1} وهكذا ساهمت الرمزية مساهمة فعالة في تشخيص النص الشعري المعاصر وإثرائه بمفاهيم جديدة مستمدة من التراث العربي وتارة من بعض المعطيات الغريبة الحديثة بفعل الترجمة والاطلاع على معارف الآخر.

وأما الشعر العربي الحديث فقد عرف هذه الرمزية بأسسه على إنجازات الشعر العربي الحديث، وإن لم يكن متمذبا على شكل "مالارميه" و"الاندجو" يقوم الرمز الحديث على الخيال المطلق، نظرية التراسل، فلسفة الحلم، شمولية الرؤيا الجمالية الذاتية الامتداد الزماني الذي يبلغ العصر الأسطوري وينطوي على معرفة عميقة وحساسة مكثفة وإيقاع معقد ترسب دلالاته القصوى في قاع بنية مبتكرة^{1 6}. ومن هنا نلاحظ أن الرمزية في الشعر العربي المعاصر هي امتداد للرمزية الغربية بمختلف اتجاهاتها ومشاربها. وإن كانت الرمزية العربية تختلف اختلافا جذريا عن الرمزية الغربية وهي الاستعانة بالشخصيات التراثية وتوظيفها توظيفا مكثفا في النص الشعري المعاصر.

الإحالات:

¹ - موهوب مصطفى، الرمزية عند البحري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 43.

² - فائزة الداية، جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب، ط2، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1996، ص 174.

³ - عبد المجيد زرقاط، الحداثة في النقد الأدبي المعاصر، دار الحرف العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 37.

⁴ - علي جعفر العلاق، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1980، ص 54.

- ⁵ - مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1974، ص 552.
- ⁶ - علي جعفر العلاق، في حداثة النص الشعري، دراسات نقدية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2009، ص
- ⁷ - عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر وقضاياها الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت، لبنان، 1972، ص 217.
- ⁸ - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دار علاء الدين، سوريا، دمشق، ط13، ص 2003، ص 20.
- ⁹ - حسي عباس عبد العالي، التحرير في القصة العراقية القصيرة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، 2008.
- ¹⁰ - إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص 128.
- ¹¹ - أحمد المطراوي، أزمة الحداثة في الشعر العربي الحديث، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ط 1993، ص 17.
- ¹² - إيليا حاوي، الرمزية والسريالية في الشعر، دار الثقافة للنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط2، 1983، ص 142.
- ¹³ - خليل موسى، بنية القصيدة العربية المعاصرة، إتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 2003، ص 52.
- ¹⁴ - إبراهيم الرماني، الغموض في الشعر العربي الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 379.
- ¹⁵ - حيرا إبراهيم حيرا، النار والجوهر، دراسات في الشعر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1986، ص 20.
- ¹⁶ - إبراهيم رماني، الرمز في الشعر العربي الحديث، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع2، ص 77.